المحاضرة رقم10: المنهج الجدلي المادي عند كارل ماركس (1818_ 1883):

تمهيد:

إن الحديث عن فيلسوف يدعى ماركس ليس بالأمر الهين، اسمه له دلالة في الكثير من الأنظمة السياسية البارزة في الساحة العالمية، إننا أمام فيلسوف متعدد الجوانب والنواحي هو فيلسوف ألماني درس الفلسفة في جامعة برلين، كان يلقب في الآونة الأخيرة باليسار الهيغلي وفي الحقيقة يعد من كبار المتأثرين والمنتقدين في نفس الوقت للفلسفة الهيغلية المجردة، فيلسوف له تكوين عالي في الاقتصاد تأثر بآدم سميث، ودافيد ريكاردوا ومن بين أشهر مؤلفاته نجد الكتاب العمدة "رأس المال" من خلال هذا الكتاب يبدوا اقتصادي إلى جانب فيلسوف، هو فيلسوف ثوري مشروعه الفلسفي عموما يهدف إلى كيفية تغير العالم، انتقد فيه النظام الرأسمالي ويعد من بين أكبر المحللين له، مهمته تتجلى كذلك في نقد الفلاسفة السابقين عنه على أساس أنهم بكل ما قدموه لم يفعلوا شيء غير تأويل العالم في حين الهدف الأكبر هو تغييره، وهذا التغيير يكون بطبقة البروليتاريا، الطبقة التي أفرزتها الثورة الصناعية، هو فيلسوف ليس مثل هيغل يؤله الصيرورة التاريخية التي هي موجودة في العالم والحياة، وإنما هو فيلسوف يريد نقد كل ما هو قائم مع الكشف عن هفواته ثم هدمه الفلسفة لا تسبح في عالم اليوتوبيات، بقدر ما هي معالجة لما هو قائم في الواقع المعاش.

1_ المادية الجدلية:

إن منطلق ماركس هو الديالكتيك الهيغلي، أو الثالوث الديالكتيكي عند هيغل لكن ما يستبعده وينتقده فيه هو فكرة الوعي، عند هيغل الذات هي المسؤولة عن كل شيء يحدث في صيرورة الوجود والحياة، لكن ماركس يبين أن الذات ليست هي من يحدد الموضوع وإنما الموضوع هو من يحدد الذات، وهذا الموضوع يكشف لنا عن كل شيء ولا يمكن أن يكون إلا المادة، المادة هي التغير، والتحول هي الصيرورة في الحياة ولا تنفصل كذلك عن الجدل أو الديالكتيك، الذي وضعه هيغل هذه المادة متحركة انطلاقا من ذاتها في البداية المادة تكون كقوة أولى ثم تصبح قوة ثانية وتتألف فيما بعد القوتان لتصبحا قوة مادية وحقيقة جديدة، هذا التعبير هو تعير في الكم لكن فيما بعد سيتحول إلى تغير في الكيف، هذا المبدأ يكون مادي ثم ينتقل إلى ما هو ذاتي، إن تغير المادة وتحولها من لحظة إلى أخرى هذه الحركة في حد ذاتها هي أساس المعرفة العلمية، وهذه هي حقيقة الوجود، والصيرورة والتغير الذي يحدث فيه، هذا ما يجب على الفلسفة أن تكتشفه هذا الوعي كله لا يأتي وحده دون حضور المادة (زيناتي، الفلسفة في مسارها، 2002، صفحة 239).

2_ المادية التاريخية:

يؤكد الفيلسوف البنيوي والفرنسي" لويس ألتوسير" أن ماركس هو مكتشف التاريخ، ولم يستعين بأي أحد في هذا الاكتشاف، الذي هو من أكبر المشاريع الفلسفية، حاول من خلاله إعادة اكتشاف التاريخ والبنى التحية له أما الفلسفة، موضحا في ذلك أن صيرورته الحقيقية هي صيرورة ديالكتيكية، وليست الروح هي المسؤولة عنها |أو الوعي كما يؤكد ذلك فيلسوف ألمانيا هيغل، ماركس هنا يطرح أسئلة حول ما إذا كان التاريخ في حركة وصيرورة، ومن هو المسؤول عن هذه الحركة؟

يبين ماركس ان التاريخ هو حقيقة هذا الوجود والحياة، والحياة التي نعيشها هي حياة فيها أناس يأكلون، يشربون، ينامون، يتحركون، ينتجون كل هذه الحياة هي حياة مادية أي أن ما يقومون به فيها من أجل إنتاج أشياء، هذا الإنتاج هو المسؤول عن صيرورة حياتهم سواء الروحية أو الاجتماعية، سياسية اقتصادية... الخ، الشرط الاقتصادي هو البنية التحية التي تقع خلف المادة وهذه المادة هي المسؤولة عن كل النشاطات الإنسانية، الاجتماعية، الاقتصادية، التاريخية، السياسية، هذه النشاطات كلها تجلي وتمظهرات، فإذن كل شيء هو تجلي لهذه المادة ولا يوجد هناك تاريخ أو تكون فيه حركة دون تغير هذه المادة من تلقاء نفسها (زيناتي، الفلسفة في مسارها، 2002، صفحة 241).

من هنا يكون التاريخ هو تطور للإنسان المادي في إنتاجه، الإنتاج المادي الذي يقدمه الإنسان هو الذي يحدث كذلك تغير في التفكير والوعي ومن هنا تكون القاعدة حسب ماركس ليست الذات هي التي تحدد الحياة بل الحياة هي التي الذات ووعيها، والحياة التي يتحدث عنها ماركس هي الحياة القائمة على الإنتاج المادي الجماعي الذي يقوم به الناس والعمال، في ظروف معينة، ويكون الإنسان حسب هذا المنطلق هو عنصر التاريخ إرادته هي من تصنعه وهذه الإرادة ليست خاضعة لأي إرادة أخرى.

3_ الإنسان والمادة:

إن الممارسة وعملية الإنتاج المادي التي يقوم بها الإنسان هي أصل كل ما هو واعي وفكري، وروحي، بل حتى إيديولوجي، إن الإنسان في علاقته مع المادة يتضح هناك التغيير والصيرورة وهذه المادة هي البداية في الحركة والتقدم نحنو الأمام، إن الإنسان عبر مراحله التاريخية كان يعيش في وفاق مع الطبيعية وليس منعزلا عنها، كما يعتقد ذلك الكثير من الفلاسفة في القرن الثامن عشر من أمثال رسو، آدم سميث.... كان في البداية مع الطبيعة، القبيلة، العائلة، وهذه هي مرحلته البدائية، ثم تغيرت كما تتغير المادة، أي هذه المرحلة الأولى أنتجت نقيضها ثم تحولت فيما بعد إلى مرحلة الرق بعد الصراعات التي ظهرت فيها نتيجة علاقة الإنسان واحتكاكه بالمادة، ظهرت آلات ملكية الأرض، الاستحواذ وذلك

الصراع أنتج ظالم ومظلوم، قاهر ومقهور، ذلك أدى إلى تغير آخر ظهرت مرحلة أخرى وهي المرحلة الإقطاعية، والمجتمع أصبح إقطاعي في العصر الوسيط الصراع أنتج في الأخير العصر الحديث أو المرحلة الحديثة، وظهر بعد ذلك المجتمع البورجوازي الرأسمالي ونقيض هذه المرحلة ظهرت طبقة البروليتاريا، هي طبقة عمال تعود إلى أيام الثورة الصناعية وهذه المرحلة نتج عنها مجتمع بلا طبقات (زيناتي، الفلسفة في مسارها، 2002، صفحة 242).

إن التطور الاقتصادي المادي والإنتاجي في الحياة أدى إلى تقسيم المجتمع إلى طبقتين وهناك صراع لا ينتهي هاتين الطبقتين البورجوازية، والبروليتاريا، وهذا هو التاريخ هو تاريخ أمة ومجتمع وصراع طبقات محركه العامل الاقتصادي المادي.

4_الإشتراكية:

إن اشتراكية ماركس هي عملية هي أصل كل نظريته في الاقتصاد هي فلسفة تحاول تغيير النظام في المجتمع الرأسمالي المصنع عن طريق إيجاد حل لتلك المعادلة القائمة بين فئة قليلة من الرأسماليين التي تنتج والعمال الذين تستغلهم، لابد من وضع حدود وضوابط لهذا التظلم ينتشر على طبقة العمال الظالمة

هذه الاشتراكية تختلف عن اشتراكية سانسيمون (1760_1825)، برودون (1809_ 1865)، والتي هي ليست على دراية بما يجري في النظام الرأسمالي من هنا إن اكتشاف عيوب النظام الرأسمالي هو سبب ظهور الاشتراكية العلمية وهي وليدة النظام البورجوازي الصناعي، المادية التاريخية التي تكلمنا عنها تتطور وفق قوانين تثبت حسم الصراع الأخير بين البورجوازية والبروليتاريا لصالح الطبقة العاملة تمركز الرأسمال في يد فئة قليلة يؤدي إلى الافتقار المتزايد للشعب في الدول المتقدمة، وماركس شهد هذا الوضع في إنجلترا، والتي بدأت فيها الثورة الصناعية عند العمل، ثم المانيا وبعد ذلك فرنسا حدث ما حلم به ماركس في فرنسا سنة 1870 ولكن الطبقة البورجوازية أوقفت وسيطرت على الوضع (زيناتي، الفلسفة في مسارها، 2002، صفحة 244).

5_ الإيديولوجية:

إن نقد ماركس للإيديولوجيا من أهم الإسهامات التي قدمت في الفلسفة، كل نظام او شعب، حزب، يتعين دون وجود مجموعة من المعتقدات والمبادئ والشعارات من أجل الجمع والربط بين المجتمع أو الناس أو أفراد، ماركس انتقد أيديولوجية الطبقة المسيطرة أنداك وهي الطبقة البورجوازية والتي تمثل نموذج يخالف الحقيقة في نظر ماركس وهو يبين كما أنه ظهر تصوير فوتوغرافي جديد تكون فيه الصورة مقلوبة وهذا تشبيه استخدمه ماركس للتعبير عن وحشية واستبداد هذه الطبقة، إن كل ما يقدمه العمال من نشاط وإنتاج

وعمل وجهد، هذا يعرف "بالبراكسيس" praxis أيديولوجية الطبقة البورجوازية لا تعكس أو تراعي هذا البراكسيس بل قدمت لنا صورة مقلوبة وهذه الصورة المسؤول الأول عنها هو هيغل الذي استخدم الديالكتيك المعكوس والتاريخ المقلوب، وضع المطلق بدل الإنسان والوعي الإلهي بدل الوعي الإنساني إذن مهمة الفيلسوف ينبغي أن يكشف عن هذا التزوير الإيديولوجي المتخفي عن الفلسفة على الفلسفة إذن الكشف عن هذا التزوير (زيناتي، الفلسفة في مسارها، 2002، صفحة 245).

نستنتج أن ماركس بمنهجه الجدلي المادي ليس الهدف منه هو هدم الميتافيزيقا ولا إحداث قطيعة مع الفلسفة التأملية والمثالية الروحية وإنما استبدال ميتافيزيقا متعالية بميتافيزيقا العمل والإنتاج يكون هاجسها الأول هو الإنسان.

المراجع المعتمدة:

_ جورج زيناتي، **الفلسفة في مسارها**، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط1، 2002.

_ علي الوردي، **مقدمة إلى الفكر الماركسي**، دار العودة للنشر والتوزيع، بيروت، 1981.

_ عبد الله العروي، **الماركسية والعرب دراسات في فهم الماركسية وتطبيقاتها**، بيروت، 1984.